

تقديم :

يعد علم الاجتماع على علاقة وطيدة بعلم النفس لأن أقطاب التحليل النفسي - ابتداء من "فرويد" و مروراً بـ: "يونغ" و انتهاء بالقراءة النفسية عند "لاكان" - يراعون ما تتكشف عنه سيرة الكاتب أو الشاعر من إشارات مردها المجتمع، و هي إشارات ذات أثر أو تأثير في الكاتب، و إذا تم الرجوع إلى الوراء يلحظ أن "أفلاطون" أول ناقد يهتم بالناحية الاجتماعية باعتبارها معياراً لاستحسان الشعر، فقد طرد الشعراء من جمهوريته الفضلى لأنهم يفسدون الأخلاق، أما الذين ينظمون الأشعار لتأجيج حماسة المحاربين فلهم التقدير كله و هذه نظرة اجتماعية للأدب⁽¹⁾، و يعدّ علم الاجتماع من أهم العلوم الإنسانية التي اعتمدها النقد الأدبي لإنتاج معرفة علمية بالظاهرة الأدبية و بتجلياتها النصية، و لإكساب النقد الأدبي الطابع العلمي باستعارته لمفاهيم هذا العلم و مناهجه.

علاقة النقد الأدبي بعلم الاجتماع:

لقد ميز الباحثون في علاقة النقد الأدبي بعلم الاجتماع بين مرحلتين أساسيتين: ارتبطتا بالتطور التاريخي الذي عرفه علم الاجتماع، و بتطور الفكر النقدي المؤسس عليه و هما:

مرحلة المقاربة الاجتماعية للأدب: و التي تميزت بنشأة علم الاجتماع و باستقلاله عن التأمّلات و التأويلات الفلسفية و خضوعه لشروط العلم بتحديد موضوعه و مناهجه من جهة، و بسعي النقد الأدبي إلى الاستفادة منه في فهم الظاهرة الأدبية باعتبارها مظهراً من مظاهر الحياة الثقافية ذات الأصول الاجتماعية من جهة ثانية، و تمتد هذه المرحلة من بداية القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين.

ويبدو أنه من العسير فصل الظاهرة الأدبية عن الظاهرة الاجتماعية إذ لا يجوز لأديب صادق أن ينشئ عمله الإبداعي من عدم و لا أن يصاعد به إلى أسباب السماء و لكن إنما يكتبه تحت وطأة التأثير الاجتماعي فتراه يتناول طبقة معينة من هذا المجتمع فيتحدث عنها واصفاً إياها محللاً أوضاعها عارضاً أطوارها معرباً عواطفها ونزواتها مبرزاً الصراع الطبقي الظاهر أو الخفي فيها⁽²⁾.

مرحلة علم اجتماع الأدب: و التي تميزت بالتطور الكبير الذي قطعه علم الاجتماع في مضمار العلم، سواء بتدقيق موضوعاته و مناهجه أم بإفادته من اللسانيات التي أمدته بمفاهيم و مناهج جديدة لدراسة الظواهر الاجتماعية، كما تميزت بمنظور الفكر النقدي المؤسس على علم الاجتماع باستفادته من النظريات و المفاهيم الاجتماعية، و من اللسانيات الحديثة للاقتراب من طبيعة الأدب باعتباره إنتاجاً لغوياً يرتبط بصيغة أو بأخرى بالحياة الاجتماعية الخاصة أو العامة للأدباء، و تبتدئ هذه المرحلة منذ منتصف القرن العشرين بل يذهب بعض الباحثين في تاريخ العلاقة بين النقد الأدبي و علم الاجتماع إلى اعتبار كتاب "هنري بيير" Henri Pierre عن

¹ - إبراهيم محمود خليل: النقد الأدبي الحديث من المحاكاة إلى التطبيق، ص 66.

² - عبد الملك مرتاض: في نظرية النقد "متابعة لأهم المدارس النقدية و رصد لنظرياتها"، دار هومة للطباعة و النشر و التوزيع، الجزائر، (د.ط)، 2005م، ص 129.

(الأجيال الأدبية) الصادر سنة 1948م وكتاب "ميشو" Michaud مدخل (لعلم الأدب) الصادر سنة 1950م بمثابة الميلاد الشرعي لاجتماعية الأدب⁽¹⁾.

إلا أن الطفرة النوعية التي تؤرخ لتطور علاقة النقد الأدبي بعلم الاجتماع و التي بشرت بالميلاد الحقيقي لعلم الاجتماع الأدب قد ارتبطت بكل من:

"جورج لوكاتش" George Lukacs (1885م-1971م).

"ميخائيل باختين" Mikhaïl Bakatin (1895م-1975م).

"لوسيان غولدمان" Lucien Goldman (1913م-1970م).

و لم يكن هذا التحقيب التاريخي أحادي البعد، حيث تبلورت داخله مجموعة من المدارس النقدية بانسجام و اطراد مع النظريات و المناهج التي بلورها علة الاجتماع، و قد تباين رصد هذه المدارس و الاتجاهات فتنوعت صيغ اجتماعية الأدب في كتابات مؤرخي الدراسة الاجتماعية للأدب و نقادها و هكذا:

يُميز "بيير زيمّا" P. Zima بين ثلاثة أنواع من الدراسة الاجتماعية للأدب:

• **علم الاجتماع التجريبي للأدب:** و يتميز بتهميشه للنص الأدبي و يبحثه عن تأثير الأدب في البنية الاجتماعية، و يفصله بين الأبحاث التجريبية و الأحكام الجمالية، و بإهمال العلاقة بين الكيف و الكم في الأدب، و باهتمامه بالإنتاج الأدبي باعتباره إنتاجا اجتماعيا يخضع لشروط كافة المنتوجات الاجتماعية و الاقتصادية و لقوانين استهلاكها، و يدخل زيمّا في هذا النوع كل من "ماكس فيبر" M. Weber، و "فوجن" H.N Fugen و "سيلبرمان" Silberman و "إسكاربيت" R. Escarpait⁽²⁾.

• **علم الاجتماع الجدلي للأدب:** و يطلق عليه المدرسة الجدلية و هي تعود إلى "هيغل" نفسه، و رأيه الذي بلوره فيما بعد "ماركس" في العلاقة بين البنى التحتية و البنى الفوقية في الإنتاج الأدبي و الإنتاج الثقافي، و هذه العلاقة متبادلة و متفاعلة مما يجعلها علاقة جدلية⁽³⁾.

و قد تميز هذا العلم باهتمامه بالنص الأدبي و بقيمه الجمالية التي تؤدي دورا مركزيا في قيمته الكمية، لأن النظريات الجدلية لا تهتم فقط بالوظيفة الاجتماعية و الاقتصادية للأدب بل تسعى لشرح العلاقة بين البنات الداخلية و السردية من جانب، و المصالح الاجتماعية و الاقتصادية و السياسية لبعض الجماعات من جانب آخر، و يدخل في هذا النوع كل من "تيودور أدورنو"، و "جورج لوكاتش" و "لوسيان غولدمان"⁽⁴⁾.

• **علم اجتماع النص الأدبي:** له إرهابات كثيرة و تاريخ عريض يمثل الحلقة الأخيرة في سوسيولوجيا الأدب التي أفادت من تطور المناهج النقدية المحدثّة، (البنوية و السميولوجية و النصية) لكي تعثر على الوساطة الملائمة التي يمكن عن طريقها تتم الدراسة العلمية و الخصبة و الجادة للعلاقة بين الأدب و المجتمع، و هو

1 - صلاح فضل: منهج الواقعية في الإبداع الأدبي، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط2، 1980م. ص 219 .

2 - عبد العزيز جسوس: إشكالية الخطاب العلمي في النقد الأدبي العربي المعاصر، ص 62 .

3 - صلاح فضل: مناهج النقد المعاصر، ص 55.

4 - عبد العزيز جسوس: المرجع نفسه، ص 63 نقلا عن بيير زيمّا Pierre Zima : النقد الاجتماعي نحو علم اجتماع النص الأدبي، ص 43-44.

التيار الذي يمثل "بيير زهما" و الذي ميزه عن علم الاجتماع الجدلي للأدب بكون هذا الأخير يتوجه إلى الجوانب الموضوعاتية أو الفكرية في النص الأدبي، بينما علم اجتماع النص يهتم بمسألة معرفة كيف تتجسد القضايا الاجتماعية و المصالح في المستويات الدلالية و التركيبية و السردية للنص⁽¹⁾، وهو يمثل مظهرا من مظاهر انفتاح علم اجتماع الأدب على اللسانيات الحديثة، و مراوحته خلال التحليل بين البعدين الاجتماعي و اللغوي للنص الأدبي باعتبار طبيعته المزدوجة و في أفق الإحاطة العلمية بالنص الأدبي من زاويتييه المركزيتين. و ترتيبا على المرحلتين السابقتين مرحلة المقاربة الاجتماعية و مرحلة علم اجتماع الأدب يمكن تحديد أنماط العلاقة بين علم الاجتماع و النقد الأدبي في:

1- **النقد الاجتماعي:** الذي يمثل مرحلة المقاربة الاجتماعية ابتداء من القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين.

2- **علم اجتماع الأدب:** الذي تأسس منذ منتصف القرن العشرين و الذي يميز فيه بين التيارات التالية:

- البنيوية التكوينية "غولدمان".

- النقد الإيديولوجي "ماشري" - "إيجلتون".

- علم الاجتماع التحريبي للأدب "إسكاريت".

- علم اجتماع النص الأدبي "بيير زهما".

دون أن ينفي هذا التصنيف تداخل هذه التيارات و استفادة بعضها من بعض و انفتاحها المتبادل. و يستدعي هذا المسرد التاريخي لاجتماعية الأدب على وضع الحدود الكبرى التي تميز هذه التيارات الرئيسية، و هي تستهدف إنتاج معرفة علمية بالظاهرة الأدبية و بتجلياتها النصية.

النقد الاجتماعي للأدب:

تعد بدايات القرن التاسع عشر من المفاصل الحاسمة في تاريخ النقد الاجتماعي، و تقول تباشير النقد الاجتماعي للأدب إلى الناقدة الفرنسية "مدام دوستايل - M. Destael" (1766م - 1817م) بكتابتها (الأدب و علاقته بالأنظمة الاجتماعية) الصادر سنة 1810م، أكدت فيه أنه لا يمكن فهم الأثر الأدبي و تذوقه تذوقا حقيقيا في معزل عن المعرفة بالظروف الاجتماعية التي أدت إلى إبداعه و ظهوره، و ألقى "بونالد" محاضرة دعا فيها إلى ما دعت إليه و أطلق عبارته الشهيرة (الأدب تعبير عن المجتمع)⁽²⁾.

كما يبرز الناقد و المؤرخ الفرنسي "هيبوليت تين" H. Taine (1828م - 1893م) بكتابه (تاريخ الأدب الإنجليزي) الصادر سنة 1836م علامة متميزة في هذا التاريخ، و هذا حينما عزا العبقرية في علاقة الأدب بالمجتمع على المقولة الثلاثية: (البيئة و الزمن و الجنس) لأن امتزاج هذه العناصر هو الذي يحدد الظاهرة الأدبية⁽³⁾.

¹ - صلاح فضل: مناهج النقد المعاصر، ص 62.

² - إبراهيم محمود خليل: النقد الأدبي الحديث من المحاكاة إلى التفكيك، ص 67.

³ - صلاح فضل: منهج الواقعية في الإبداع الأدبي، ص 216.

كما أسهمت آراء "بونالد" المنشورة في صحافة الأدب انتشارا واسعا في إيجاد ما يسمى ظاهرة علم اجتماع الأدب أو ما يعرف بالتأويل الاجتماعي للأدب.

و جاء كتاب تين عن "لافونتين" و أمثاله عام 1953م يبرهن على صحة المزاعم التي تدعي أن الأدب يبني و يبتدع، و ينظم ما هو مبعثر و مبثوث في المجتمع.

أما الماركسية فلم تكتف بالقول السابق و هو أن الأدب تعبير عن المجتمع أو أنه يتأثر بالحياة الاجتماعية المتغيرة، فقد أضفت الماركسية على الأدب صفة تقر به من الإيديولوجية التي هي أداة للتوجيه أو السيطرة على الجماهير⁽¹⁾، و لهذا فإن "ماركس" و "إنجلز" بنظريتهما المادية التاريخية قد أصلا نظريا و منهجيا، تأصيلا مؤسسا على أن الأدب يقوم على العلاقة الجدلية بين البنيتين التحتية و الفوقية في المجتمع و على رأسها العلاقات الاجتماعية في واقع تاريخي و اجتماعي معينين، و بالرغم من أنهما لم يؤسس نظرية متكاملة و مفصلة حول علاقة الأدب بالمجتمع ولم يبلورا منهجا مدققا لدراسة هذه العلاقة، فإنهما قد صاغا أفكارا متفرقة حولها جمعت في كتاب (الأدب و الفن) الصادر عام 1933م وضعا فيه المبادئ التي نخصت عليها الدراسة الاجتماعية للأدب⁽²⁾، و خصوصا نظرية الأدب الاشتراكية مع "بليخانوف" و "جدانوف" الذي أكد على أهمية الدراسة الاجتماعية للأدب في قوله «لابد من دراسة الأدب في علاقته التي لا تنفصم بالحياة الاجتماعية من ناحية البنية السفلى التي تشكلها العوامل التاريخية و الاجتماعية ذات التأثير الحاسم في الكاتب»⁽³⁾.

و من المنظور الماركسي لابد للأدب من أن يتغير إذا قامت الثورة و أطاحت بالبنى الأساسية للمجتمع ليصبح أدبا جديدا معبرا عن أحلام الطبقة أو الشرائح الاجتماعية الصاعدة، وفي ضوء ذلك أعاد الماركسيون النظر في أمرين اثنين أولهما طبيعة الأدب و ثانيهما غاية الأدب.

أما عن طبيعة الأدب فقد رأى الماركسيون أنه انعكاس للواقع شاء ذلك الأديب أم لم يشأ، و نظرية الانعكاس هذه تبطل في نظرهم الكثير من المفهومات النقدية السائدة، فأحببت فكرة الإلهام التي نادى بها "أفلاطون" و "أرسطو" و نقاد الرومانسية، و أن الأدب و الفن تعبير عن الأحلام أو الرغبات المكبوتة أصبح من الأقوال التي لا تصمد عندهم للنقاش.

أما غاية الأدب فهي عندهم مرتبطة بموقف الأديب من الصراع الذي يسود المجتمع، فإن كان المجتمع شهد صراعا طبقيًا حدد هدف الأدب و غايته بنصرة إحدى الطبقتين أو التعبير عن إحداهما، و إذا كان المجتمع يشهد تحولا تتقلد فيه الطبقة العمالية - مثلا - مقاليد السلطة، فإن غاية الأدب هي الدفاع عن مكاسب هذه الطبقة الجديدة.

1 - إبراهيم محمود خليل: النقد الأدبي الحديث من المحاكاة إلى التفكيك، ص 68.

2 - عبد العزيز جوسوس: إشكالية الخطاب العلمي في النقد الأدبي العربي المعاصر، ص 67.

3 - صلاح فضل: منهج الواقعية في الإبداع الأدبي، ص 217-218.

و قد شاع النقد الماركسي و اقترن به علم جديد هو علم الجمال الماركسي الذي تجاوز انتشاره منظومة الدول الشيوعية إلى البلاد التي تشهد توترا اجتماعيا، و ظهرت تسميات جديدة للنقد المتأثر بالماركسية منها تعبير النقد الاجتماعي، و النقد الإيديولوجي، و النقد الواقعي، و الواقعية الجديدة، و استخدام تعبير الالتزام و هو اللفظ الذي يوصف به الأدب الذي يسعى لتحقيق الغاية المنصوص عليها في النقد الماركسي⁽¹⁾.

و قد تبلور اتجاهان متميزان في النقد الاجتماعي منذ أن ترسخت مفاهيم نظرية الأدب الاشتراكي، المؤسسة على مبادئ المادية التاريخية كما وضع صياغتها "كارل ماركس" و هما مترتبان عن مدرستين اجتماعيتين مختلفتين هما: الوضعية و الجدلية.

* فالنقد الاجتماعي المؤسس على علم الاجتماع الوضعي ينظر إلى الأدب باعتباره معلولا لعلة قابعة في الوسط الاجتماعي و مجسدة في الواقع الخاص بالأديب، ولذلك فإن الناقد الاجتماعي يهتم بالكشف عن العوامل المختلفة: الطبيعية و الثقافية و الدينية و الأخلاقية و غيرها، التي أثرت في شخصية الأديب و سميت أدبه بسمات مترتبة عن تفاعله الخاص مع هذه العوامل.

* أما النقد الاجتماعي الجدلي فإنه ينظر إلى الأدب في علاقته بالاجتماع وفق النظرية الماركسية في تحديدها لعلاقة الإنسان بالواقع الاقتصادي و الاجتماعي، فالأديب ينتمي إلى طبقة اجتماعية معينة يحددها الوضع المادي - الاقتصادي الذي يعيشه، و ما يعكسه من تمايز و صراع البنية التحتية المتحركة في البنية الفوقية، و لذلك فإن الأديب يعكس في أدبه رؤية الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها، و لا يمكنه أن يعبر عن ذاته إلا في نطاق علاقاته بالذوات التي يشترك معها في الوضعين الاقتصادي و الاجتماعي⁽²⁾.

و ما يهم الدارس من هذين الاتجاهين الكبيرين هو أن النقد الأدبي قد واکب مختلف التحولات و التوجهات التي عرفها علم الاجتماع، سعيا وراء تأسيس فهم موضوعي و علمي بالظاهرة الأدبية، و في أفق إكساب نفسه طابع العلم بالاستفادة من هذه العلوم.

إلا أن التحول الكبير في الدراسة الاجتماعية للأدب قد وقع في منتصف القرن العشرين، عندما بدأت (معالم علم اجتماع الأدب) في التبلور.

علم اجتماع الأدب:

و قد خضع هو الآخر للتطور المزوج الذي عرفه علم الاجتماع من جهة، و نظرية النقد الأدبي و مناهجه من جهة ثانية، كما تمايزت داخله التوجهات الوضعية و الجدلية مع هيمنة هذه الأخيرة، التي أفرزت تيارات نقدية متميزة تستبطن نظرية المادية الجدلية في تحليل الظواهر الثقافية و ضمنها الأدب منها:

أ- **البنوية التكوينية:** و هي تنسب إلى "لوسيان غولدمان" الذي جدد النظرة الماركسية للأدب عن طريق المزج بين البنوية التي شاعت في الدراسات الأنثروبولوجية عند كل من "جان بياجيه" و "شترانس" و المادية التاريخية

¹ - إبراهيم محمود خليل: المرجع نفسه، ص 68 .

² - عبد العزيز جسوس: إشكالية الخطاب العلمي في النقد الأدبي العربي المعاصر، ص 67 .

لدى الماركسيين و تأثر "غولدمان" بـ"جورج لوكاتش" تأثراً كبيراً، فإذا كان "لوكاتش" قد عبر عن آرائه في كتابه (الرواية التاريخية) فإن "غولدمان" بدوره قد عبر عن آرائه في كتابه (سوسيولوجيا الرواية) أي علم اجتماع الرواية، و أكد أن الأعمال الأدبية التي تكتب في حقبة من الزمن تسعى إلى تكوين بنية ذات دلالة، وهذه الدلالة تشير إلى رؤية الكتاب و الفنانين و المثقفين، و التوصل إلى فهم هذه الرؤية يحتاج إلى دراسة الأعمال الأدبية باعتبارها وحدة شمولية كلية الطابع، وبخلاف ذلك تبقى دراسة الآثار الأدبية دراسته مجتزأة تخفق في الاهتمام إلى حقيقة الدور الذي يؤديه الأدب والفن في الحياة.

و الفارق بين "غولدمان" و البنيويين أن هؤلاء من أمثال "شتراوس" و "بياجيه" و "رولان بارت"، يدرسون الأثر الفني (النص) من حيث هو بنية مستقلة عما عداها، مثلما تدرس الكلمة الواحدة في علم الصرف من حيث بنيتها و هي اسم فاعل أو مفعول أو اسم مكان، أما عند "غولدمان" فهي بنية نسبية يتوقف اكتمالها على تحقيق الانسجام بينها و بين الأعمال الأدبية الأخرى، تماماً مثل سلوك الفرد لا يتضح خيره من شره إلا من خلال وضعه في السياق الذي يتطلبه سلوك الأفراد أو الطبقة أو الشريحة الاجتماعية التي ينضوي فيها ذلك الفرد⁽¹⁾.

و لهذا فإن دراسة الأعمال الإبداعية دون وضعها في السياق الاجتماعي نهج مضلل، لأنه لا يقود إلى اكتشاف الصفة الجماعية للآثار الأدبية و الفنية في حقبة و زمن معينين، وقد طبق "غولدمان" أفكاره النقدية هذه على أعمال الكاتب القصصي الفرنسي "فلوبير" و أعمال "باسكال" و أعمال المسرحي "راسين"، مستنتجا أن القرابة التي تجمع بين بعض هذه الآثار بعصر ما في وحدة كلية تفصح عن وجود رؤية مشتركة بين مبدعي تلك الآثار.

و من هنا فإن سوسيولوجيا الأدب أو علم اجتماع الأدب هو العلم الذي يعنى بتتبع الآثار الأدبية و المناخات الاجتماعية المؤثرة فيها، بحيث تجعل منها نتاجاً لوعي جماعي ما،⁽²⁾ و يعرف "غولدمان" الإبداع الأدبي بأنه (تعبير الوعي بمجموعة اجتماعية ما أو لطبقة معينة)، غير أن هذا الوعي الذي يتحدث عنه "غولدمان" ليس وعياً حقيقياً و لكنه الوعي الممكن باصطلاح أستاذه "لوكاتش"⁽³⁾ و غولدمان يكشف في دراسته لـ"باسكال" و "راسين" و "روسو" عن وجود رؤية موحدة للعالم، تميزت على الدوام بأنها رؤية مأساوية سوداء، والحق أن بحث "غولدمان" فيما وراء النص للوصول إلى ما يعبر عنه قاده إلى ما يعرف بالنقد التكويني، و هو الذي يسعى إلى الإجابة عن السؤال: كيف يكون الأثر الأدبي؟ و لذلك يطلق على طريقة "غولدمان" الاجتماعية في دراسة الأدب اسم البنيوية التكوينية، لأنها مزيج من بنيوية الأنثروبولوجيين و التكوينيين و التي هي في الأصل منظور تاريخي⁽⁴⁾.

1 - إبراهيم محمود خليل: النقد الأدبي الحديث من المحاكاة إلى التفكيك، ص 70-71.

2 - المرجع نفسه: ص 71.

3 - عبد الملك مرتاض: في نظرية النقد، ص 131.

4 - إبراهيم محمود خليل: المرجع نفسه، ص 71.

إن نقطة الاتصال بين البنية الدلالية و الوعي الجماعي الطبقي هي من أهم الحلقات عند "غولدمان" و التي يطلق عليها مصطلح (رؤية العالم)، فكل عمل أدبي يتضمن رؤية للعالم ليس العمل الأدبي المنفرد فحسب بل الإنتاج الكلي للأديب و لعصر معين، و عن طريق رؤية العالم يمكن الرؤية بشكل صاف كيفية تبلور العلاقة الخلاقة بين الأعمال الإبداعية من ناحية، و الوقائع الاجتماعية و الخارجية من ناحية ثانية⁽¹⁾.

و قد بلور "غولدمان" النظرية (البنوية التكوينية) منذ سنة 1947م و التي تقوم على العناصر التالية:

1- إن الأدب يتجسد ماديا في (بنية لغوية) مؤسسة على مجموعة من العلاقات الداخلية، و يعكس هذا العنصر التأثير الذي مارسه اللسانيات و الفكر البنيوي في النقد الأدبي المعاصر.

2- إن هذه (البنية اللغوية) لم تتشكل من تلقاء ذاتها، و إنما تشكلت من قبل أديب و بالتالي فإنها تكتسب دلالتها من علاقتها به.

3- إن هذه (البنية اللغوية) باعتبارها (عملا إنسانيا) تشكل (بنية دالة) لا يمكن فهمها و تفسيرها إلا من خلال (الدراسة التكوينية)، التي تفيد بأن هذه البنية ليست مغلقة و جامدة و إنما تتميز بالحركة و التوالد.

4- إن هذه البنية اللغوية (تتولد) و (تتكون) من بنية ذهنية هي (رؤية العالم) (Vision du monde).

5- إن رؤية العالم لا ينتجها الأديب و إنما هي مستمدة من رؤية العالم للطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها.

6- إن البنية الذهنية المشكلة لرؤية العالم و لطبقة اجتماعية معينة تتحدد من خلال السياق التاريخي و الاجتماعي لهذه الطبقة، و بالتالي فإنها تعكس تاريخ هذه الطبقة و حاضرها و آفاقها.

7- إن هذه الرؤية المرتبطة بالطبقة لا تولد منعزلة في واقع تاريخي واجتماعي معين، و إنما توجد بموازاة الطبقة الاجتماعية المتعايشة معها، فيترتب على ذلك تبادل التأثير بينها.

8- إن العلاقة بين البنية اللغوية و البنية الذهنية (رؤية العالم) و الطبقة الاجتماعية ليست قائمة على الانعكاس و إنما تقوم على (التناظر البنيوي) الذي يقتضي تولد بنية من أخرى دون أن تكون مطابقة لها⁽²⁾.

و على الرغم من سعي البنيوية التكوينية لاكتساب النقد الأدبي طابعا علميا فإنها لم تسلم من انتقادات لاذعة سواء من النقاد المركسيين أنفسهم "ماشري"، "إيجلتون" أم من خصومهم، و قد استندت هذه الانتقادات على روايتها الانعكاسية و على نظرتها للنص الأدبي باعتباره منسجما إيديولوجيا، و على خلفيتها السياسية و الإيديولوجية و على قصورها في تحليل البنية اللغوية للنص الأدبي في مستوياته الداخلية.

ف"غولدمان" يهتم بالخطاب الأدبي كغاية في حد ذاته لا كوسيلة لمعرفة المجتمع و هو بذلك ينفي مفهوم (الانعكاس الآلي) للواقع في المضمون الأدبي، فهو يهتم بالنص كبنية متكاملة شكلا و مضمونا بالمفهوم البنيوي التكويني.

¹ - صلاح فضل: مناهج النقد المعاصر، ص 58.

² - عبد العزيز جوسوس: إشكالية الخطاب العلمي في النقد الأدبي العربي المعاصر، ص 69.

و لقد حَرَف نقاد عرب عدة هذا المنهج الغولدماني، فطغى على أعمالهم الجدل الإيديولوجي و التركيز على المضامين و اتخذوا نقل الكاتب للواقع مقياسا لنجاح الأثر و هو ما يفضحه "خلدون الشمعة" بقوله: (إن اقتراب الناقد من مناهج علم الاجتماع مثلا - سعيا منه- لتحقيق ما يدعوه بالمنهج العلمي، هذا الاقتراب الذي قد يصل إلى حد التطابق في الحالات التي تزداد الحماسة فيها لتحويل النقد الأدبي إلى علم منهجي، قد يجعلنا نفضل أن نسمع شهادة عالم الاجتماع، و ليس الناقد ما دام الأول هو الذي يضع يده على مفاتيح القانون)⁽¹⁾.
غير أن المنهج الاجتماعي يبقى وسيلة منهجية لوصف العمل الأدبي إلا أن تطبيقه الميكانيكي قد ينزلق بالناقد إلى التطرف و السلبية و هذا ما يجب أن يوضع في الحسبان.

ب- النقد الإيديولوجي:

ظهر النقد الإيديولوجي عند كل من "بيير ماشري" و "تيري إيجلتون" الذين انطلقا لتحديد هذا النمط النقدي من النقاد البنيوية التكوينية، لتصحيح مفاهيمها و تطوراتها في أفق الإمساك العلمي الدقيق بالأدب و نصوصه، اعتمادا على التحليلات الاجتماعية المتطورة التي تبلورت خلال تطور علم الاجتماع الجدلي:
و قد انطلق "ماشري" منذ 1966م في كتابة (من أجل نظرية للإنتاج الأدبي) من الموازة بين (الإنتاج الأدبي) (و الإنتاج الاقتصادي)، معتبرا الأديب (المنتج الأدبي) و سيكون كل ما يدخل النص عرضه للتحويل إلى شيء آخر أثناء كتابة النص، تماما مثلما يبدل الفولاذ الذي يدخل في صناعة مروحة الطائرة مظهره ووظيفته بعد قطعه و لحمه و صقله و تركيبه على الطائرة إلى جانب الأجزاء الأخرى.

إلا أنه قد تحول بعد ذلك إلى اعتبار الأدب (جهازا للهيمنة الإيديولوجية) تسعى به الإيديولوجية المهيمنة عن طريق المدرسة و وسائل التلقين الإيديولوجية المختلفة إلى صياغة مجتمع متطابق معها، و بالتالي فإن المدرسة تشبه مصنع الأحذية، وهي تعمل على صنع أناس على مقياس الإيديولوجيا السائدة، كما تعمل مصانع الأحذية على إنتاج مقاسات قابلة للاستهلاك، و يؤدي الأدب دور صياغة هذه الإيديولوجيا و ترسيخها، ويستتبع ذلك أن المقاربة العلمية للأدب تقتضي دراسته في بعده الإيديولوجي⁽²⁾ و لكن باختلاف عن الزعم الغولدماني بأن النص الأدبي يعكس بنية إيديولوجية (رؤية العالم) متماسكة ومتجانسة، فهو في نظر "ماشري" مليء بالثغرات و التصدعات التي تفرضها الإيديولوجيا المهيمنة، والتي لا تكمن من فهم النص الأدبي من خلال بنيته الإيديولوجية الداخلية، بل من خلال (علم التشكيلات الإيديولوجية) كما ذهب إلى ذلك "إيجلتون".

ج- علم الاجتماع التجريبي للأدب:

ترجمت هذه المدرسة في دراسات سوسيولوجيا الأدب نقاد غربيون من أهمهم في المدرسة الفرنسية "سكاربيه"، و له كتاب في علم اجتماع الأدب و هو يدرس الأدب كظاهرة إنتاجية ترتبط في آلياتها و في قواعدها بقوانين

¹ - توفيق الزبيدي: أثر اللسانيات في النقد العربي الحديث من خلال بعض نماذجه، الدار العربية للكتاب، تونس، (دط)، 1984م. ص 146.

² - عبد العزيز جوسوس: إشكالية الخطاب العلمي في النقد الأدبي العربي المعاصر، ص 70.

السوق، و يمكن عن طريق هذا دراسة الأعمال الأدبية من ناحية الكم في الدرجة الأولى على حساب الطابع النوعي للأعمال الأدبية و هذا ما يؤخذ عليها.

و علم الاجتماع التجريبي للأدب ينظر إلى الظاهرة الأدبية كظاهرة اجتماعية، و يستعير مناهجه من علم الاجتماع التجريبي في دراسة الظواهر الاجتماعية ليدرس بها ظاهرة أدبية ما، وقد ترسخ في هذا التيار النقدي الاهتمام بـ :

1- الإنتاج: حيث يخضع الأديب للتحليل باعتباره منتجا لسلعة أدبية فيتم الكشف عن وضعه الإنتاجي ضمن انتمائه الطبقي.

2- التسويق: و فيه تتم دراسة الجوانب الاجتماعية والاقتصادية المتعلقة بصناعة الكتاب وتسويقه، مثل الطباعة و النشر و التوزيع و ظروف القراءة، و دور الإعلام و الإشهار و النقد الأدبي في ترويج الإنتاج الأدبي.

3- الاستهلاك: حيث تتم دراسة أنواع قراءة الإنتاج الأدبي و ظروفها و دور القراء في إضفاء القيمة على المنتج الأدبي أو سحبها منه.

كما يتناول علم الاجتماع التجريبي للأدب النصوص الأدبية من خلال ما تحتويه من موضوعات تهم المؤرخ الاجتماعي أكثر مما تهم الناقد الأدبي⁽¹⁾.

و قد استخدم "ياسين السيد" مصطلح (علم الاجتماع الأدبي) للدلالة على مجموع الدراسات التي تناولت الأدب من الرؤية الاجتماعية، و عدّ هذا العلم فرعاً من فروع علم الاجتماع.

د-علم اجتماع النص الأدبي:

ينطلق "بيير زيما" لتحديد مفهوم علم اجتماع النص الأدبي و تمييزه عن الصيغ الاجتماعية المختلفة لمقاربة الأدب من مفهومين متكاملين:

- أن لا وجود للقيم الاجتماعية المستقلة في اللغة.

- إن الوحدات المعجمية و الدلالية و التركيبية في النص الأدبي تجسد مصالحي اجتماعية⁽²⁾.

و مما يترتب على ذلك ربط "زيما" بين (سوسولوجيا النص الأدبي) و (السميولوجيا)، و عن طريق هذا الربط و التفاعل بين البنيات يتحقق الطابع المزدوج للنص الأدبي⁽³⁾، فهو علامة لغوية مركبة من وحدات متداخلة تجسد مصالحي و صراعات اجتماعية.

و قد انتقد "زيما" البنيوية التكوينية في اهتمامها بالدراما و الرواية و إقصائها للشعر متذرة بذاتيته التي تجعله مستعصياً أمام التحليل الاجتماعي، و ذلك ما دفع بعض النقاد ذوي النزوع الاجتماعي في النقد الأدبي مثل "جوليا كرسيفا" إلى الاهتمام بالقصيدة الغنائية انطلاقاً من بنيتها اللغوية لإبراز دلالتها الاجتماعية، وما أدى

¹ - صلاح فضل : منهج الواقعية في الإبداع الأدبي، ص 221، عبد العزيز جسوس : إشكالية الخطاب العلمي في النقد الأدبي العربي المعاصر، ص 71 .

² - المرجع نفسه: ص 71-72.

³ - سعيد يقطين : افتتاح النص الروائي (النص والسياق)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ، المغرب، ط2، 2001م. ص 25-27 .

ب"غولدمان" نفسه إلى تبرير ذلك بأن دراسة الشعر الغنائي تقتضي الإلمام بمجموع النصوص الشعرية للشاعر، من أجل الكشف عن بعدها الاجتماعي، وهذا ما سوغ لـ"زما" نفسه بالجمع بين المدخلين الاجتماعي والتحليل النفسي في نطاق (علم اجتماع النص الأدبي)⁽¹⁾.

يخلص الباحث مما تقدم أن علم الاجتماع بصيغته المختلفة قد اتخذ شكلا من أشكال البحث العلمي الذي له أصوله و أركانه و قواعده، و شمل البحث فيه عن سوسيولوجيا الأديب و الكاتب، و سوسيولوجيا القارئ، و سوسيولوجيا وسائل الإعلام و النشر المقروء و غير المقروء، و البحث في مدى قياس تأثير الأدب في جمهوره⁽²⁾. و قد عمل علم اجتماع الأدب على إنتاج معرفة علمية بالأدب، كما عمل على إكساب النقد الأدبي طابع العلم بالاستفادة من مفاهيم علم الاجتماع المختلفة، و بالانفتاح على علم اللغة الحديث أساسا و على بعض مفاهيم التحليل النفسي في أفق الإحاطة بالظاهرة الأدبية و تجلياتها من زوايا مغايرة.

أما بالنسبة للثقافة العربية فهناك عدة دراسات تطبيقية فيما يخص الأعمال الأدبية، التي حاولت أو اقتربت من الاستزادة بمفاهيم علم اجتماع الأدب لدراسة الظاهرة الأدبية سواء من ناحية الكم أو الكيف، و منها الدراسة التطبيقية التي يمكن أن تكشف عن القيمة الفعلية للمناهج و الآثار المترتبة عليها، و قد أجرتها باحثة سويدية و هي "مارينا ستاغ" و قد ترجمت إلى العربية في كتاب بعنوان (حدود حرية التعبير)، هذه الدراسة توظف التقنيات التجريبية و الإحصائية والتحليلية و لكن بطريقة تختلف عن التوظيف السابق للمدرسة التجريبية في علم اجتماع الأدب، و ذلك لأنها تختار ظاهرة محددة وهي ظاهرة سقف الحرية التي يتمتع بها كتاب القصة القصيرة على وجه التحديد في مصر في فترة حكم "عبد الناصر" و "السادات"، أي في ثلاثة عقود من الخمسينيات إلى بداية الثمانينيات (...). و هي تتخذ من منظورها منطقيات منهجية حيث ترى أن الإبداع القصصي هو أكثر أشكال الإبداع ارتباطا بحركة المجتمع، و أنه غالبا ما يصطدم بعوائق و محرمات اجتماعية آنذاك، لذلك فإن مؤشرات المصادرة و الحظر و منع التداول و العقوبة بالسجن هي التي يمكن قياس درجة حرية التعبير المسموح به في المجتمع، و درجة التعبير ذات علاقة وثيقة بالقيمة النوعية للأعمال الإبداعية فهي ليست مؤشرا كميًا فحسب وإنما مؤشر نوعي يمكن قياسه.

لقد عمدت الباحثة إلى تحديد حالات الكتاب المصيرين الذين تعرضت أعمالهم الإبداعية في مجال القصة القصيرة للحظر كليًا أو جزئيا، بمنع النشر أو الرقابة أو الحذف أو السجن الشخصي، و هذا ما اضطرتهم إلى الهجرة ونشر أعمالهم خارج حدود الوطن.

إن تطبيق المنهج بتقنياته التجريبية أدى إلى ربط التطور الحضاري لمجتمع ما بالتطور الإبداعي للكتابة، وأن مقياس مستوياته يكون بمدى ما يتاح لهؤلاء الكتاب من هامش حرية ضيق أو واسع في نشر أعمالهم التي تخالف منظومة القيم المستقرة في المجتمع.

¹ - عبد العزيز جوسوس: المرجع نفسه، ص 72 .

² - إبراهيم محمود خليل: النقد الأدبي الحديث من الحكاية إلى التفكيك، ص 72 .

من هذا المنظور يستخلص أن الدراسة السوسولوجية للأدب (...) عندما تتخذ منطلقا مرتبطا بجوهر الأدب و هو التعبير عن الذات الفردية و الاجتماعية، يمكن لها أن تنجو من محدودية الدراسات الكمية التي لا تستطيع تقييم الظواهر طبقا لخواصها النوعية،⁽¹⁾ و يمكن الإشارة - أيضا - إلى عالم اجتماع عربي وهو "الظاهر لبيب"^(*) حيث استخدم المنهج التكويني (التوليدي) في تحليل ظواهر الأدب العربي و هي ظاهرة الغزل العذري في العصر الأموي، حيث درسها من ناحية تعبيرها عن (رؤية العالم) لفئة اجتماعية و هم الشعراء العذريون، حاول أن يقيم علاقة بين ظاهرة الغزل العذري بوصفها ظاهرة متميزة في تاريخ الشعر العربي في الفترة الأموية من ناحية، وطبيعة الأبنية الاجتماعية و الاقتصادية لهؤلاء الشعراء من ناحية أخرى، ومدى نجاحهم في تقديم رؤية للعالم تعبر عن واقعهم الاجتماعي.

و هناك دراسة أخرى لشاعر وناقد مغربي و هو "محمد بنيس"، حاول فيها أن يربط بين الإبداع الشعري المغربي المعاصر و الظواهر السوسولوجية في المغرب العربي على وجه التحديد⁽²⁾، كما عني "فتحي أبو العينين" يبحث عن صورة الفلاح المصري في روايات "عبد الرحمان الشراوي"، و كانت نقطة البدء عنده هي الفرض القائل: (أن الأدب يعكس الحياة الاجتماعية)، وقد حدد في البداية منهجه القائم على المنطق و الإحصاء و تحليل المحتوى الأدبي، حيث قام بإجراء عدد من الاستخبارات التي استخدمها كأساس للمقارنة بصورة الفلاح في الروايات التي حدها من واقع حياة الفلاح، و بهذا الربط بين الواقع العيني للفلاح و الواقع المقروء استطاع أن يصل إلى نتائج مفيدة مستندا إلى مقارنة الأثر الأدبي في حدود الاستناد إلى مفاهيم و منجزات علم اجتماع الأدب⁽³⁾.

أما "الويس عوض" فقد أجرى بحثا عديدة تهتم أساسا بإبراز تأثير الوسط الاجتماعي على الأثر الأدبي، فهو يحاول الربط بين الأدب و السياق الاجتماعي و التاريخي عن طريق الاستعانة بمنهج التفسير، فهو يرى أن الأدب نشاط لا ينفصل عن المجتمع، و أنه أحد أدوات التعبير الاجتماعي، فهو قد اهتم بالعوامل المؤثرة على تطور الأدب، واهتم أيضا بدراسة تاريخ الفكر المصري، وقد كان "عوض" متحمسا للمنهج التاريخي و الاجتماعي لتعليل الصلة بين الأثر الأدبي و المجتمع ليقضي على النزعات المثالية و الميتافيزيقية التي توجد في النقد الأدبي ليجعله أشد ميلا للملاحظة العلمية⁽⁴⁾.

و اهتم "محمود أمين العالم" بإجراء دراسات على عدد من الأدباء في النصف الأول من القرن الماضي، وكانت فرضية البدء عنده فكرة أساسية مؤداها: أن الأدب للمجتمع و التعبير عنه، و أن مضمون الأثر هو الذي يستطيع وحده تحقيق هذه الغاية، وقد دفعته نزعته الماركسية إلى محاولة صياغة آراء "ماركس" في الفن والأدب

¹ - صلاح فضل: مناهج النقد المعاصر، ص من 50 إلى 53.

* الظاهر لبيب: عالم اجتماع تونسي رئيس جمعية علم اجتماع العرب، أعد دراسته لنيل شهادة الدكتوراه في أوروبا وكان أستاذه المشرف "غولدمان"، المرجع نفسه، ص 59.

² - صلاح فضل: مناهج النقد المعاصر، ص 60.

³ - سمير سعيد حجازي: قضايا النقد الأدبي المعاصر، ص 56.

⁴ - المرجع نفسه: ص 60-61.

صياغة دقيقة، فاستطاع في دراسته أن يصل بهذا المفهوم إلى درجة مرضية من الدقة، إذ رأى أن مضمون الأثر الأدبي يعكس الواقع و أن البناء الفني ليس سوى شكلا لهذا المضمون، ثم واصل البحث في مسألة النقد الاجتماعي الأدبي و نال تحليل مضمون الأثر معظم دراساته،⁽¹⁾ بالإضافة إلى الدراسة التي قدمها "محمد علي البدوي" بعنوان (التحليل السوسولوجي لثلاثية "نجيب محفوظ")، والتي يرى من خلالها الباحث أن نجيب محفوظ قد عالج العديد من القضايا الاجتماعية والسياسية و الاقتصادية بحس اجتماعي واع يجمع بين الفكر و الفن في قالب واحد - خاصة في الثلاثية - و على الرغم من تحيز الكاتب لتصوير واقع الحياة الاجتماعية للطبقة التي ينتمي إليها، إلا أنه كان يبرز دائما الجوانب السلبية لهذه الطبقة - أكثر من إبرازها للجوانب الإيجابية - بقصد التغيير إلى الأفضل، وعموما فالطبقة الوسطى في المجتمع هي قلب المجتمع النابض و هي التي تحوي العديد من التيارات الفكرية.

و قد تناول الباحث "محمد علي البدوي" بالتحليل ثلاثية "نجيب محفوظ" و ذلك في ضوء عدد من المفاهيم السوسولوجية كمفهوم الطبقة، و الدور، و الشخصية، و التغيير، و القيم الاجتماعية، و ذلك من خلال التركيز على الشخصية و ما تحمله من قيم اجتماعية و مدى تمثيل هذه الشخصية لبقية الفئة التي ينتمي إليها⁽²⁾. و يعتقد أن سر نجاح و رواج روايات "نجيب محفوظ" لا سيما (الثلاثية)، هو مدى تطابق شخصيات و أحداث هذه الرواية على الحياة الفردية و الاجتماعية في مصر، برؤية سوسولوجية عميقة متجذرة عند "نجيب محفوظ"، و هذا ما يظهر جليا في شخصيات روايته المنتقاة بعناية كبيرة من واقع المجتمع، بل تمثل قطاعا عريضا من المجتمع المصري.

¹ - المرجع نفسه: ص 62 .

² - محمد علي البدوي: علم اجتماع الأدب (النظرية والمنهج والموضوع)، دار المعرفة الجامعية، مصر، (د.ط)، 2004م. ص 326.